أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
ISSN 2773-2940 EISSN....-.... ـ المجلد 01 العدد 02 (سبتمبر،2019 م) ص 107إلى 124

رمز المرأة في ديوان "ولعينيك هذا الفيض" لعثمان لوصيف وتجليات النسق المضمر ـ مقاربة سيميوتأويلية ـ

The Symbol of Women in the Collection of "And to Your Eyes this Abundance"by Othman Lusif and the Manifestations of the Tacit Pattern: A Semiotic Approach

أ. فريدة بعيرة * مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

جامعة باتنة 1 ـ الجزائر bairafarida@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ القبول
2019/05/17م	2019/07/12م	2019/07/12م

ملخص

يعاين هذا المقال عدة إشكالات متعلقة بتوظيف رمز المرأة في الشعر العربي المعاصر عموما والجزائري منه على وجه الخصوص وقد وقع الاختيار على ديوان "ولعينيك هذا الفيض" للشاعر عثمان لوصيف كأنموذج لمقاربة هذا الرمز الواسع الدلالة؛ في محاولة للقبض على بعض أبعاده العميقة. وذلك من خلال مقاربته مقاربة سيميوتأويلية في محاولة لسبر أغوار هذا الديوان وبالتحديد ما تعلق منه بهذا الرمز الزئبقي المتفلت، توصلنا من خلال هذه المقاربة إلى أن رمز المرأة يتزين في كل مرّة بلبوس مختلف فمرة تمثّل الأم ومرة الحبية، ومرّات مثلت الوطن، مقحما لأجل ذلك حقائق تاريخية وهوياتية مضمرة، كما أن الشاعر أحاط هذه التيمة بهالة من القداسة بتوظيفه البعد الصوفي الفارض نفسه في هذا الديوان والذي عرف به في أغلب أعماله الابداعية.

الكلمات المفتاحية: الرمز؛ المرأة، الشعر؛ مقاربة؛ الهوية؛ التاريخي.

Abstract

The current investigation explores several issues related to the employment of the symbol of women particularly in Algerian poetry. The collection of Othman LUCIF as a pattern to approaching this significant broad symbol to get its deep dimensions. The semiotic approach is more appropriate to the subject nature to probe depths of this collection, specifically everything related to this symbol. The results of the study revealed that the symbol of woman appears differently each time. Once it represents the mother, sometimes the lover and many times the homeland inserting both implicit historical and identity facts. The poet also surrounded this theme with an aura of holiness by employing the same imposing mystic dimension in this divan, which he was known for, in most of his creative works.

Keywords: symbol; woman; poet; approach; identity; historical

*المؤلف المرسل

1.مقدمة

إن المتأمل لشعر فقيد الجزائر الشاعر عثمان لوصيف يجده محمّلا بحمولات وأيقونات دلالية ورمزية تضمن له التفرّد والتميّز؛ إذ أصبح الرمز ظاهرة فنية أساسية تتزيّا بها القصيدة المعاصرة؛ لأن توظيفه ـ الرمز ـ في القصيدة يحمّل تلك الألفاظ الواضحة البسيطة في دلالتها معان رمزية ترتفع باللحظة الاعتيادية إلى مستوى التأمل والاستبطان وتلك هي سمة الابداع. ويعد الشاعر عثمان لوصيف من أبرز الشعراء الجزائريين الذين يجيدون توظيف الرمز بطريقة ابداعية لها خصوصية تاريخية هوياتية وأيديولوجية لا تتجل للمتلقي من الوهلة الأولى بل تحتاج منه تبصرا وحفرا في التخوم لأجل تفكيك شفرات النص وبالتحديد الرمز بغية الوصول للمعنى العميق والنسق المضمر لمتن نصه الشعري، ولعل من أبرز دواوينه الشعرية المتميزة التي تستوقف القارئ الباحث عند جماليات توظيفه للرمز ديوانه " ولعينيك هذا الفيض" خصوصا منه رمز المرأة نظرا لكون هذا الرمز واسع الانتشار والتوظيف في الشعر العربي منذ القدم؛ غير أن اللافت للنظر هو خصوصية توظيف عثمان لوصيف له في هذا الديوان توظيفا يكشف لنا عن أنساق مضمرة زئبقية تستلزم الحفر في أعماق النص للقبض عن مكنوناته؛ وعلى هذا الأساس فإن الاشكالية التي تفرض نفسها في هذا السياق هي: ما مدى تجاوز الشاعر عثمان لوص0يف الرمزية الاعتيادية لتوظيف المرأة كرمز للأنوثة والحب والخصوبة إلى أبعاد أخرى أعمق من ذلك؟ وبعبارة أخرى: ما مدى زئبقية رمز المرأة في هذا الديوان، وما طبيعة النسق المضمر وراء هذا التوظيف؟

ولمقاربة تيمة المرأة في ديوان ولعينيك هذا الفيض اخترنا واحدا من أهم المناهج النقدية المعاصرة والمتمثل في المنهج السيميائي معضدين إياه بالإجراء التأويل كونهما يتناسبان مع طبيعة الديوان وأيقوناته فالسيمياء هي علم العلامات والرموز، أما التأويل فهي الإجراء النقدي الذي يسمح بالبحث عن المعنى العميق المتستر خلف المعاني السطحية وفي هذا السياق يرى سعيد بن كراد أن السيمياء "ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الانسان سلوكاته، أي معانيه، وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها الانسان هذه المعاني، (سعيد ، 2003، صفحة 23) وهذا المقال سيحاول البحث في المسكوت عنه

من خلال الحفر في تخوم النص بغية الوصول للمعنى العميق لرمز المرأة الموظف في هذا الديوان بداية من العتبة الأولى له والمتمثلة في العنوان "ولعينيك هذا الفيض".

2.عتبة العنوان

1.2. مفهومه الاصطلاحي

من المتعارف عليه أنّ ظاهرة العنونة أصبحت من المواضيع المهمة والشائكة في فضاء النص الأدبي (شعر، نثر). إلا أنّه وعلى الرغم من الدراسات والبحوث العديدة والتي تناولت موضوع العنونة، ومفهومها لا يوجد اتفاق كلي بين الباحثين والدارسين حول تعريف موحّد لهذا المصطلح.

فنجد ليو هوك عرّفها على أنّها " مجموعة العلامات اللسانية التي يمكن أن تدرج على رأس نص لتحدده، وتدلّ على محتواه العام، وتعرّف الجمهور بقراءته". (شادية ، صفحة 296)

يتضح من خلال هذا التعريف أنّ العنوان مجموعة من العلامات والرموز التي تتموقع على بوابة النص لتؤطر كيانه اللغوي والدلالي، وتعلن عنه للجمهور والمتلقي في نفس الوقت.

أمّا جيرار جينات فنجده قد أحسّ بصعوبة كبيرة، حينما أراد تعريف العنوان، نظرا لتركيبته المعقّدة والعويصة عن التنظير.

يقول جيرار جينات في هذا السياق " ربّما كان التعريف نفسه للعنوان يطرح أكثر من أيّ عنصر آخر للنص(...) هوّ في الغالب مجموعة شبه مركّبة، أكثر من كونها عنصرا حقيقيا، وذات تركيبة لا تمسّ بالضّبط طولها". (جميل ، صفحة 106)

أمّا غريفال فيعرّفه بأنّه "الإعلان عن طبيعة النص، فهوّ إعلان عن القصد الذي تنبني فيه إما واضعا بشكل محايد، أو حاجبا لشيء خفي أو كاشفا غير آبه بما سيأتي لأن العنوان يظهر معنى النص، ومعنى الأشياء المحيطة بالنص فهو من جهة يلخص معنى المكتوب بين دفتين ومن جهة ثانيّة يكون بارقة تحيل على الخارج، أي خارج النّص" (جميل ، صفحة 109)

فالعنوان إذن يعلن ويعيّن طبيعة النص ويحدد نوع القراءة المناسبة له، فهوّ يعلن كذلك عن مقصديّة ونوايا المبدع ومراميه الأيديولوجيّة، فهوّ يقوم بعمليّة توضيح للمعنى، وتفصيل لما هوّ غامض، وغير مبيّن، هذا ما قصده غريفال بتعريفه.

وما نلاحظه في هذه التعريفات أنّها ركّزت على عنصر واحد، فقد اتفقوا على أنّ العنوان هوّ مجموعة من الإشارات والعلامات والرموز المشعّة المحيطة بالنّص، لتعلم عنه للمتلقي، وكذا لتوضيح الغامض، وتفصيل المختزل منه.

لكنّ دراسة ليو هوك تبقى الدراسة الأعمق والتي تناولت العنوان من منظور مفتوح تؤطره السيميائيّات فضلا عن اطلاعه على تاريخ الكتابة، منطلقا من تعريفه له كمجموعة علامات لسانيّة، تصوّر، تعين، وتشير إلى المحتوى العام للنص". (جميل ، صفحة 106)

وهذا التعريف هوّ الأمثل لإسقاطه على دراسة(مقاربة) عنوان هذه القصيدة التي بين أيدينا " ولعينيك هذا الفيض".

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ العنوان لا يظهر بنفس الشاكلة كلّ مرة، بل يضحى بتمظهرات شتّى.

2.2. أنواع العنوان

- **العنوان الحقيقي وهوّ** العنوان الأصلي، بطاقة تعريف تمنح النّص
- **العنوان الفرعي** يكون بعد العنوان الرئيسي لتكملة المعنى.
- **العنوان المزيّف** يوجد بين الغلاف والصفحة الداخليّة.
- **العنوان التجاري** ويتعلّق بالصّحف والمجلات.
- **العنوان الموضوعي** وهوّ العنوان الذي يشير إلى موضوع النّص.
- **العنوان النوعي** يشير إلى النّص ذاته. (شادية ، صفحة 269)

3.2. وظائف العنوان

يعتبر العنوان رسالة لغوية، تتصل في لحظة ميلادها بحبل صرّي يربطها بالنّص لحظة الكتابة، والقراءة معا، فتكون للنّص بمثابة الرأس للجسد، نظرا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيريّة، وجماليّة كبساطة العبارة وكثافة الدلالة رغم أنّه من الصّعب الحديث عن وظائف العنوان، أو حصرها في نقاط محددة، وقد حاولت ثلّة من الباحثين القيّام بذلك من مرجعا وواقعا أساسا، وهيّ ذات طبيعة معرفيّة، وموضوعيّة لا وجود للذاتيّة فيها وذلك نظرا للنقل الصحيح للحقائق والملاحظات.

الوظيفة الانفعاليّة وهي ذات طبيعة ذاتيّة عاطفيّة.

- **الوظيفة التأثيريّة** وهيّ تقوم بتحديد العلائق بين الرسالة والمتلقي، إذ تقوم بإثارة انتباهه بينهم" رومان جاكبسون " في كتابه (قضايا الشعريّة)؛ حيث بيّن ستة أنواع وظائف للعنوان هيّ: الوظيفة المرجعيّة، الانفعاليّة، الشعريّة أو الجماليّة، التنبيهيّة (التأثيريّة)، والانعكاسيّة. (جميل ، صفحة 100)
- **الوظيفة المرجعيّة** وهيّ تتمركز في النّص في حدّ ذاته وتركّز على موضوع الرسالة باعتباره، وإيقاظه، وذلك عن طريق الترغيب والترهيب، وهيّ أيضا وظيفة ذات طبيعة عاطفيّة ذاتيّة.
- **الوظيفة الشعريّة أو الجماليّة** وتتسم هذه الوظيفة بالبعد الجمالي والشاعري وكذا الفنّي.
- **الوظيفة التواصليّة** تتمركز في قناة الاتصال، تهدف إلى تأكيد التواصل إقامة اتصال" وإبلاغ وتنبيه أو إيقافه فهيّ تؤكّد على الاتصال وتسمح بتبادل الأفكار والخبرات، وهيّ ذات طبيعة معرفيّة موضوعيّة.
- **الوظيفة الميتالغوية** وهدف هذه الوظيفة هوّ تفكيك الشّفرة اللغويّة، والرموز والإشارات من طرف المرسل لفهم الرسالة وتأويلها وتفكيك شفراتها من أجل الكشف عن المعنى العميق، هذه هيّ الوظائف الست لجاكبسون.

كما يمكن للعنوان أن يأخذ وظائف أخرى غير وظائف جاكبسون؛ محددا بذلك لنفسه وظائف خاصّة به يمكن حصرها فيما يلي:

- **الوظيفة التفسيريّة** وهيّ التي يطرح فيها العنوان نفسه علينا دون مراوغة أو تضليل؛ بل يحقّق أكبر مردوديّة من المعاني التي تسحب في العادة على النّص كلّه، فيتبدى العنوان خطابا شفافا، تنساب من خلاله الدلالات والمقاصد بشكل يسير. (شادية ، صفحة 271)
- **الوظيفة الجماليّة** يتبدى العنوان فيها نصا مفتوحا على أكثر من قراءة، يهمس بالمعنى دون أن يبوح به، يظهر شيئا ويغيّب أشياء، متمرّدا على الحصار، ينساب

لممارسة المعنى المؤجّل، وفي هذه الحالة يكون علامة سيميائيّة، يفرض على القارئ الولوج إلى عالم المغامرة، ويجيزه على التأويل، وذلك " بتقديم عدد من الإشارات والتنبؤات حول محتوى النّص، ووظيفته المرجعيّة ومعانيه المصاحبة وطاقاته الترميزيّة ". (الطيب ، صفحة 25)

- **الوظيفة الاشهاريّة / الاغرائيّة** وهيّ الوظيفة التي يكون فيها العنوان لافتة اشهاريّة لكيان النّص فكثيرا ما نجد المبدع حائرا بين عناوين كثيرة نتيجة متطلبات إيقاعية، وبيانيّة وأيديولوجيّة، وأخرى تسويقيّة وتجاريّة، فكم من عنوان كان سببا في كساد كتب وموت نصوص، كان ينبغي لها أن تحيا والعكس صحيح.

3. زئبقية رمز المرأة وتماهيها مع تيمة الوطن

عودا على بدء، وإذا حاولنا أن نسقط تعريفا واحدا من هذه التعاريف السابقة لتحميله دلالات عنوان هذا الديوان " ولعينيك هذا الفيض" وجدنا الأمر جدّ صعب والسبب في ذلك راجع لكون هذا الوسم محمّلا بدلالات متعددة ومتشعبة تتزيّا في كل مرّة بزي مختلف عن الآخر؛ ولعل الغاية المنشودة من إلباس الشاعر الفقيد عثمان لوصيف ديوانه هذا اللبوس والالتباس في آن هو ضمان زئبقية نصه هذا ورمزيّته وبالتالي توالد الدلالات والمعاني والقراءات المختلفة المخلدة للنص أكثر فأكثر، وبعد تمعّن في دلالات المتن ارتأينا أن نصنف عنوان هذا الديوان تحت خانة العناوين النوعية ذات الوظيفة الشعرية الميتالغوية وذلك لكونها الوظيفة الأنسب حسب اعتقادي لخلخلة ركائز النص للكشف عن مكنوناته المسكوت عنها.

فالقارئ المتمرس والمقترب من خصوصية الشعر المعاصر عموما والجزائري منه على وجه الخصوص يعي جيداً أنه ـ الشعر ـ يتجاوز الوظيفة الجمالية إلى أبعاد رساليّة أعمق وأهم من الترف اللغوي والترويح عن النفس، وهذا ما أشار أليه هيدغر منذ زمن بعيد حيث أعطى الأولوية للغة عموما، وللشعر على وجه الخصوص من أجل فهم الوجود أو بالأحرى فهم الذات لكينونتها ويعود هذا اللجوء إلى الشعراء بوصفهم حرّاسا للكلمة، ولأن الذات الانسانية عموما والذات الشاعرة على وجه الخصوص تتخفى وراء اللغة لتنوب وتفصح بدلا عنها رموزاً وإشارات؛ (عبد الغني ، 2008، الصفحات 234-235) فالذات الشاعرة بهذا تسعى لاندماج

كلي بالعالم، لا وصف العالم فعلا في العالم لا انفعالا به، كما تسعى أيضا الكشف عن وجود لا وصف لموجود، أضف إلى ذلك سعيها لتجاوز السيرورة لا الجمود والاستقرار، (عبد الواسع ، 1999، الصفحات 6-7) وهذا ما أهّل اللغة عموما وبالتحديد لغة الشعراء لأن تكون وسيطا لتعبّر الذات عن وجودها، وعن سيرورة هذا الوجود، فلولاها ـ اللغة ـ لما عبّر عن (المرأة/ الوطن) والوجود وأسرارهما، فإذا كانت المرأة هي رمز الخصوبة والحب في النصوص الشعرية القديمة فهي اليوم في الكتابات المعاصرة كذلك رمز للوطن والانتماء والاستقرار وهذا ما سنصل إليه من خلال استنطاق هذا الرمز (المرأة/ الحبيبة/ الأم/ الذات الإلهية المتعالية) والتي تحيلنا إلى معنى أعمق مرموز له في هذا الديوان «لعينيك هذا الفيض" لكن لابأس قبل التطرق للمعنى العميق والنسق المضمر المتواري خلف المعنى الظاهر والسطحي لهذا الديوان بما تحمله لغته من شاعرية وصوفية وغزل لابأس من الوقوف عند الرمز في ديوان " ولعينيك هذا الفيض".

4. البعد الصوفي وقداسة رمز المرأة في ديوان ولعينيك هذا الفيض

يعد الشاعر عثمان لوصيف من الشعراء الجزائريين المتميزين في انتقائهم للرمز وتوظيفه في متونهم الشعرية والسبب ولا شك يعود لثقافته وانفتاحه على المتون التراثية القديمة بكل ما تحويه من رموز وأساطير وابداعات صوفية ويجدر بنا التنويه إلى أن شاعرنا هذا كتب في توجّهات مختلفة ومتنوعة (الوطن /الحبيبة/ الثورة /الانسانية/ المعاناة/ الكينونة الوجودية)، وغيرها من المواضيع الهادفة، وبما أن موضوع هذه الورقة البحثية ديوانه "ولعينيك هذا الفيض" سنركز على رمز حاضر بقوة في أغلب دواوينه وكذا لكون هذا الرمز يخدم إشكالية الورقة البحثية ويتعلق الأمر برمز (المرأة) والتي تعدد ذكرها في هذا الديوان مرة بوصفها الحبيبة ومرة متجاوزاً ذلك لماهية الأم والعلاقة بها وثالثة متعلقة بالذات الإلهية المقدسة ـ بتعبير صوفي ـ متميز؛ ليؤكد لنا الشاعر عثمان لوصيف من خلال هذه الفسيفساء في توظيفه لهذا الرمز أنّه اتجه " اتجاها قويا إلى الإهابة بالمرأة وبأحوال العشق الإنساني، بوصفها رموزا صوفية ذات طابع غنائي، لوّح الشعراء من خلالها إلى عاطفة الحب الإلهي" (عاطف ، 1983، صفحة 165) وغيرها من المواضيع الحاضرة وبقوة في الساحة

الأدبية؛ ففي هذا الديوان ورغم أن المرأة/ الأنثى تمثل مرآة ينعكس عليها الحسن والجمال الإلهيان وهذا الانعكاس يخلّصها من نسبها الناسوتي، ويجعل منها كائنا إلاهيا في معناه وإن كان بشريا، في صورته البشرية والفيزيولوجية (محمد ، 2001، صفحة 87) ولعل من بين المقاطع الشعرية التي تعضد هذه الفكرة في هذا الديوان قول الشاعر:

أتذكرك في كل صلاة
فأنحني.. في خشوع
أغمض عيني من رهبة
أسبح بحمدك
وأتضرع
إلى عينيك اللا متناهيتين
يا صورة الله
في بهو المرأة
ويا راهبة المعاني
من كل نار
وعلى كل قافية ضامرة
يتوافد الحجيج أفواجا
أفواجا (عثمان ، 1999، الصفحات 34-35)

والمتأمل لمتن هذا الديوان يجد تكرار رمز العين بصورة ملفتة وتختلف مقصديتها من موضع لآخر مما يؤكد لنا عدم اعتباطيته في اختيار وسم هذا الديوان؛ فالنظر إذن إلى العناوين، والمقاطع الشعرية، والتقسيمات الداخلية، وترتيب القصائد في كتب الشعر كاستراتيجية على محمل الجد، والبحث في طبقاتها المختلفة مسألة تستحق المجازفة، بقدر ما تحقق من المتعة، ناهيك عن تحويلها إلى عتبة لولوج النص، والتي تمثل بدورها غواية مبرّرة لقراءة القصائد التي يتكون منها الديوان، (محمود ، 1999، صفحة 75) وبما أنّ الديوان الذي استوقفنا في هذه الدراسة هو ديوانه "ولعينيك هذا الفيض" ننوه فقط إلى أنّه لفّه ومن العتبة الأولى "العنوان" برمزية متقنة الحبك والاختيار بجعل عنوانه رسالة لأنثى زئبقية الطبيعة

تضمر تحت وسمها المظهر نسقاً تاريخي وهوياتي عصي القبض عليه للوهلة الأولى ومن القراءة السطحية المسلمة بالمقولات الجاهزة والتسليم بالدلالة العادية للفظة، ليأخذ رمز المرأة هنا صفة " تقرير ما تكونه هويّة الموجود الرمزي/ الوجود المرموز له، في سياق تجربة القول عموما، المتضمن تحديد ما تكونه امكانية الرمز(الرمزية) في سياق الترميز للوضع الجاهز عموما" (عبد الواسع ، 1999، صفحة 714)؛ وهذا ما يؤكد أن المخيلة .لدى المبدع ـ "أقوى فعلا من الحواس؛ ذلك لأنها قادرة على الانطلاق في فضاء أرحب؛ ولأنها خارج الشرط، فإنّ فعلها خارج الشرط أيضاً" (خالد عبد الرؤوف ، 2009، صفحة 138)

5. دلالة العينين في الشعر العربي المعاصر

مما لاشك فيه أن الشعراء ومنذ القدم من عهد عنترة ومجايليه ولغاية اليوم يمنحون المرأة أهمية كبيرة في شعرهم ففي الشعر الجاهلي كان من مقومات استقامة القصيدة وتمامها الوقوف على الطلل ذكر المرأة والتغزل بها والتغني بالخمرة، ونلاحظ في الشعر المعاصر توظيف بل التركيز على تيمة المرأة في غالب النصوص الشعرية، مما يؤكد أهميتها كيف لا وهي رمز الخصوبة الحياة والاستمرارية؛ غير أنّها تأخذ أبعادا رمزية في غالبية النصوص بعد تحميل المبدع إياها دلالات عميقة تتجاوز كونها المرأة الحبيبة، أو الأم الأصل، وهذا ما نجده في ديوان ولعينيك هذا الفيض للشاعر عثمان لوصيف .كما سبق وذكرنا؛ وفيما يلي سنحاول ربط المعنيين الحسي والمعنوي لهذه التيمة (العين) حيث "تفضي حركية التعبير الشعري في الصورة البصرية المرهونة بقدر متوتر من الحجب والعزل إلى صورة بصرية طالعة من رحم الأولى، تفتح مجال الرؤية البصرية على مدى مرآوي وتخييلي أقل عزلا وحجبا وأكثر مرونة في تلمس رذاذ اللغة على سطح الصورة"، (محمد صابر ، 2010، صفحة 17)

قال الشاعر:

عيناك

سماوات قزحية

فيهما تعترش الأغاني

وتتفتق الغوايات

يداك..

حنان الطبيعة في أوج صبوتها

خصلاتك الطائشة

صورة حية لأيامي الحيرى

ونهداك الطافران

كوكبان من شمع معجون

سؤالان لجوجان

وفكرتان تستهويان العشاق (عثمان ، 1999، الصفحات 20-21)

ولعلّنا نتوقف حيال هذا المقطع باستذكار قصيدة للشاعر العراقي بدر شاكر السياب " أنشودة المطر" والتي افتتحها بمفردة عضو حسي وهي العينان، هذه التيمة التي أخذت مكانتها في الشعر العربي عموما والمعاصر منه على وجه الخصوص والتي خلّد فيها العراق بصورة رمزية متناهية الدقة والتصوير: قال بدر شاكر السياب:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأ عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر

يرجّه المجذاف، وهنا ساعة السحر

كأنّما تنبض في غوريهما، النجوم

وتغرقان في ضباب من أسىً شفيف

و نلاحظ هنا اذا افترضنا أن الشاعر عثمان لوصيف تناص مع قصيدة أنشودة المطر تناصا خارجيا تستدعي فيه "البنية ما يؤكدها من نصوص، وهو بهذا الفهم ليس تجاوزاً لتلك النصوص بمقدار ما هو تأكيد للنص الجديد؛ بقدر ما هو تجسيد للبنية التي استدعت النصوص وفرضت التقاطع معها"(خالد عبد الرؤوف ، 2009، صفحة 168)حيث نجد الشاعر عثمان لوصيف يتجاوز التغزل بالمرأة إلى تغزله بالوطن مثلما سنوضح ذلك فإنّ

الشيء نفسه حدث مع الشاعر بدر شاكر السياب الذي تغنى ظاهريا في هذه القصيدة بحبيبته إلّا أن المعنى أعمق حيث يقصد بمتنه هذا العراق وطنه المفدّى.

ومن هذا المنطلق نجد عثمان لوصيف في هذا الديوان يستنطق الغياب ـ نقصد في هذا السياق المعنى الغائب ـ ويحاور المسكوت عنه، فدلالات نصه هنا وبالتحديد رمز المرأة تتجلى كلما اقتربنا إلى المركز أكثر، فمعاني الرمز (المرأة/ الأنثى) في هذا الديوان تشبه ما ذهب إليه بارث ـ حيث شبّه توالد المعاني وتعدد القراءات للمتن الواحد ببصلة لكل طبقة منها حجم، وخصوصية، وإذا كانت الطبقات تشكل في نهاية الأمر هذه الثمرة، و قد تكاثرت هذه السمة في النصوص المعاصرة نتيجة لأسباب كثيرة منها طبيعة العصر الذي يتطلب السرعة والغنى والتنوع والتعددية والاختلاف سواء في الابداع أو قراءاته، وبما أننا بصدد الحديث عن المرأة كونها رمزا دالاً في هذا الديوان وجب علينا التذكير بأن الشاعر خصص في العنوان مسمى لعضو جسدي من المرأة والذي لطالما أسال حبر المبدعين والمتغزلين بالمرأة لأنه يعد أيقونة الجمال والبوح ألا هو (العينان) واسما ديوانه بـ "و لعينيك هذا الفيض" ؛ فالعينان هنا رمز لغوي لعضو جسدي في غاية الأهمية سواء منها الجمالية أو الوظيفية " وظيفة الابصار" وهو رمز ندرك من خلاله " عالما تموج فيه أفكار متخفية تعبّر عن الوجود النفسي وكلّما استطعنا أن نستشف المعاني الما ورائية التي تنشأ شيئا فشيئا فإنها تتحول إلى تجسيد له معالمه الداخلية فيتشكل في نطاق اللفظ ـ هذا الرمز ـ الذي يكون محسوسا لتحوله صلابته إلى سيولة تتقطر من خلال أحرف الكلمات رموزاً تعبر عن خلجات الوجود الانساني" (رجاء ، د ت، صفحة 113) ولعل هذا ما يبرر ما سنصل إليه من تأويل في خلاصة هذه الورقة البحثية التي تتجاوز النسق المظهر من المتن إلى نسقه المضمر منطلقين من الواضح إلى الغامض ومن العام إلى الخاص؛ يقول الشاعر:

نمشت يديك بالقبلات
غمست شفتيك بالزنجبيل
واقتطعت لك من ضلوعي
نسرينة وشعاعين (عثمان ، 1999، صفحة 43)

يوضح لنا الشاعر من خلال هذه الأبيات تعامله مع المرأة بوصفها أنثى مقدّرة ومحبوبة من طرف الرجل" الشاعر" فالمرأة إذن هنا هي الحبيبة وقد تتعدد الحبيبات، ليخصص في الأبيات التالية أكثر ويوضح أن هذه المرأة هي الأم البيولوجية المعطاءة وهي واحدة، لا ثانية لها ذاكرا رموز دالة على ذلك يقول:

أتذكر ماء المشيمة

أتذكر الرحم الأول

أتذكر ثديين سخيين (عثمان ، 1999، صفحة 43)

ومن خلال هذا الانتقال من العموم إلى الخصوص وتوظيفه المتكرر للفعل المضارع " أتذكر" المؤكد للحس النوستالجي " الحنيني" للأم وللبدايات لِما فُقِدَ من هذا النبع الخصب ويرسخ لنا الشاعر أكثر حسه النوستالجي أكثر بتراتبية توظيف هذا الفعل المضارع مرة أخرى بقوله:

أتذكر نبضي الأول

ملكوت الله

ووغوغات الأجنحة

أتذكر حمى المخاض العسير

وعنف الولادة... (عثمان ، 1999، الصفحات 44-45)

من خلال هذه الأبيات والتي تعتبرها هذه الورقة البحثية مربط الفرس ينقلنا الشاعر إلى فكرة أعمق وصورة أدق لصورة المرأة الحبية والأم إلى رمزية الأنثى الأعمق المقصودة في هذا الديوان ألا وهي الوطن فبعدما تذكر في أبيات سابقة (ماء المشيمة / الرحم الأول) والمتعلق بالمرأة وبالتحديد الأم وإضافة إلى ثدييها السخيين، كل هذه الدوال تحيلنا على الاحتواء والانتماء وحماية الوجود ها هو يتذكر النبض الأول وحمى المخاض العسير، وكذا عنف الولادة لنجد هنا انزياحا واضحا يحملنا مسؤولية موجهة متعمدة لإجلاء المسكوت عنه؛ لنجد أنّه يقصد من خلال هذا التذكر ما عاشه هذا الوطن من مخاض عسير وعنف الولادة مخاض عسير يتجلى في عسر وصعوبة الثورة الجزائرية في شتى مراحلها سواء منها الثورة التحريرية المجيدة ضد المستعمر الفرنسي و المخاض العسير الذي عاشته إبان العشرية السوداء في آن.

أماّ عنف الولادة فيقصد بها ميلاد هذه الحرية التي كان ميلادها عسيرا لدرجة أن الشاعر اعتمد في تتمة فكرته نقاط دالة على كلام محذوف يطول الحديث حوله ليمنح المتلقي مساحة أرحب ويجوز له هاهنا أن يملأ الفراغ بما يشاء. ومن هنا نستشف أنّ هذا المضمر التاريخي والهوياتي أورده الشاعر بطريقة تلميحية مستترة متقنة وذكية جدّا، وبحسن تخلص منقطع النظير حيث ينقلنا الشاعر من سرد نستالجي ينطلق "من علاقة كانت تندفع نحو موجود بشري هي " الأنثى" إلى علاقة أصبحت تتجه نحو موجود مجرد هو الممكن الابداعي، اللغة، أو الإبداع الممكن"؛ (عبد الواسع ، 1999، صفحة 91) يعود مرّة أخرى لذكر المرأة وبالتالي للعب الابداعي الذي يتميز به عثمان لوصيف ليغلق على أفكاره ويلفها بزئبقية من أجل تمويه القارئ العادي لأنه يكتب لقارئ مثالي ينطلق من التخوم ليصل إلى المركز العميق صابغا بوحه الشعري بفلسفة صوفية ويتجلى ذلك من خلال قوله:

والتقينا ذات مساء ممطر
حيتني بابتسامة لا مبالية
وسارت معي
تلفها غمامة من الصمت والمهابة
رشقتها بآلاف الأسئلة
فما ردّت ولا ابتسمت ثانية
غشيتني منها رعشة غريبة
لبحرانات أغرب..
ورأيت أنا الصوفي الشاعر
أنا الفيلسوف المراهق
رأيت في نظراتها المريبة
مالم يخطر ببال الآلهة القديمة (عثمان ، 1999، الصفحات 62-63)

يتجاوز شاعرنا عثمان لوصيف هنا المرأة كرمز للوطن ليمزجها بوصف صوفي لتصبح " حالة المجلى الرمزي خالقا إمكانية علو الأنا المتجلي، إمكانية رؤيا المتجلي نفسه، وقد صار في

مقام من يستحق استوقاف (الآلهة القديمة) لتبصر مكنوناتها وفهمها، والمتضمنة حالة وجود المجلى مقموعاً في مقام القمع، أي في مقام العبودية و الخضوع لعلو خالقه المتجلي...أوفي حالة المجلى لا خالقا ولا مخلوقا، المتضمنة حالة وجود المجلى الرمزي مستلبا بقول المتجلي الجاهز لما يكونه (عبد الواسع ، 1999، صفحة 413) ويؤكد الشاعر تفلت هذه المرأة/ الأنثى وتجاوزها للمعنى الطبيعي والمعروف إلى مغزى أعمق والأبيات التالية تثبت ذلك؛ يقول:

أتذكرك
في كل صلاة
فأنحني.. في خشوع
أغمض عيني من رهبة
أسبح بحمدك
وأتضرع
إلى عينيك اللامتناهيتين
يا صورة الله
في بهو المرأة
ويا راهبة المعاني
من كل نار
وعلى كل قافية ضامرة
يتوافد الحجيج أفواجا
أفواجا (عثمان ، 1999، الصفحات 34-35)

فبعد عودته للبوح ببعد صوفي ها هو يضمن أبياته رمزية مقدسة وأهمية بالغة لهذه الحبيبة قرنها بعبادة الصلاة مرّة وبمناسك الحج ثانية إثباتا لأهميتها وقداستها قائلا:

آه! يا امرأة المناسك
والنوافل
ويا معبودا
لا يغفر إلاّ لمن جنّ

بالإغماء في محرابه (عثمان ، 1999، صفحة 36)

ولعل الشاعر في هذه الأبيات حاول أن يؤكد لنا ضرورة التقديس والاخلاص والولاء المطلق لهذه (المرأة/ الوطن) حتى تغفر لك وتحتويك، ومثل لذلك بالتسامي الذي يصل إليه الصوفي والمعبر عنه في هذه الأبيات بالإغماء والجنون والتي ترافق الحالة الصوفية التي تعتري المتصوف.

6. خاتمة

بعد الاقتراب من بنى المتن الشعري لديوان " ولعينيك هذا الفيض" للشاعر عثمان لوصيف ومحاولة تقويض بعضٍ من لبناتها؛ أو بالأحرى مقتطفات من هذا الديوان وبعد محاولة بناء لها من جديد وتأويل لدلالاتها وصلنا فيما نرى إلى البعد العميق حسب هذه القراءة لرمز (المرأة / الأنثى) في هذا الديوان وذلك بتساقط أقنعتها كلّما أوغلنا في البحث لنجد أنّ:

- المرأة في هذا الديوان تمثل الحبيبة بعدها الأم بعدها الحبيبة الخارقة المحيرة للآلهة القديمة لنصل إلى رمزيّتها الأعمق ألا وهي الوطن / الجزائر.
- وسم هذا الديوان يتقاطع مع قصيدة بدر شاكر السياب" أنشودة المطر "المفتتحة بتيمة العين هذا العضو الحسي الذي فرض نفسه في النص الشعري العربي عموما والمعاصر منه على وجه الخصوص كرمز زئبقي يتزيا بالحبيبة حينا والوطن أحايين أخرى.
- وظف الشاعر الأنثى بكل رمزيّتها (الخصوبة/ الاحتواء/ الملجأ)، ناهجا بذلك نهج كاتب ياسين في روايته نجمة الجزائر هذه الشخصية الزئبقية المضمرة لكل معاني الوطن العصي عن الفهم الواضح المتجلي المحير كينونة، المؤصل قاعدة وركائزا
- حمّل الشاعر عثمان لوصيف ديوانه ولعينيك هذا الفيض بحقائق تاريخية وهوياتية مضمرة حيث لمّح فيه عما عاشته الجزائر إبان الثورة التحريرية وكذا العشرية السوداء، وذلك من خلال حديثه عن المخاض العسير الذي عاشته هذه المرأة/ الوطن.
- في هذا الديوان بعد صوفي متميز عرف به عثمان لوصيف في العديد من أعماله الشعرية. زاد النص عمقا وزئبقية.

- ديوان ولعينيك هذا الفيض يبقى مخزونا خاما يقبل قراءات أخرى وبوجهات نظر متعددة نظرا للدلالة العميقة المتخفية خلف أقنعة متنوعة وأنساق مضمرة؛ وهذا ما قال به بارث حيث شبه توالد المعاني.

7. قائمة المصادر المراجع

1. الجبر خالد عبد الرؤوف. (2009). *غواية سيدوري، قراءات في شعر محمود درويش*. عمان-الاردن: دار الجرير للنشر والتوزيع.
2. الطيب، ب .(s.d.) .قراءة في كتاب سيمياء العنوان لبسام قطوس .*الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي*. بسكرة : جامعة محمد خيضر.
3. بارة عبد الغني. (2008). *الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي*. الجزائر: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف.
4. بنعمارة محمد. (2001). *الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر*. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس.
5. بنكراد سعيد. (2003). *مدخل إلى السيميائية السردية*. الجزائر: دار القصبة للنشر.
6. جودة نصر عاطف. (1983). *الرمز الشعري عند الصوفية*. بيروت-لبنان: دار الأندلس.
7. حمداوي جميل. (بلا تاريخ). *السيميوطيقا والعنونة*.
8. درويش محمود. (1999). المختلف الحقيقي" دراسات وشهادات. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
9. شقروش شادية. (بلا تاريخ). : سيميائية العنوان في ديوان مقام البوح، ا،. *الملتقى الأول حول السيمياء والنص الأدبي*. الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة.
10. عبد الواسع، ا .(1999). *الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية*. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
11. عبيد محمد صابر. (2010). *تأويل النص الشعري*. إربد.الأردن: عالم الكتب الحديث.
12. عيد رجاء. (د ت). *لغة الشعر الحديث، قراءة في الشعر العربي الحديث*. الاسكندرية: منشأة المعارف.
13. لوصيف عثمان. (1999). *ولعينيك هذا الفيض*. الجزائر: دار هومة،.